اللذّة

لجناب جرجس افندي خولي

اللذّة إمّا صالحة شريفة وهي ما انت من القيام بالواجب سعيًا وراء الخير والفضيلة غير مقصودة في ذاتها. واما فاسدة قبيحة وهي ما كانت من الاهتمام بالباطل جريًا وراء الشر والرذيلة مقصودةً بالذات. والاولى هي الراحة الكاملة والسعادة الحقيقية في الحياة الدنيا وفيها كلامنا الآن غير ان لنا في الثانية كلامًا وجيزًا نبتدئ به اولاً فنقول

تختلف هذه اللذة باختلاف اخلاق اصحابها ومشاربهم فربَّ عمل يجد فيهِ زيد من اللذّة ما لا يجدهُ عمرو اولا يجد فيهِ لذةً البتة. فمن هؤلاء من يقصد اللذة من ابوابها المضرة حيث الاعمال المغايرة لقانون الصحة والآداب الاّ انهُ لا يلبث ان يراها امرٌ من العلقم وربما عادت عليهِ بالعلل المزمنة او عجلت مسيرهُ الى الهاوية وظلمة الموت. ومنهم من يتعمّدها في المحظورات اما علنًا وفيهِ ما هنالك من القصاص سواء من الناس بالتوبيخ والملام او من الحكومة بالمجازاة اذا وُجد ثمّة ما يستلزمها واما خفيًا وهناك الحكم عليهِ من قاضي الضمير العادل الذي لا يأخذ رشوة ولا يحابي بالوجوه. ومنهم مَن يسعى اليها في ظلمة الليل و يتطلّبها في الاعمال المغايرة للشرائع والسنن. ومن هؤلاء من يتفقّدها عن عجز او بطالة حتّى اذا لم يعثر عليها الاّ في الدسائس والضرب بين القوم قال خلا لكِ الجوُّ فبيضي واصفري. ومنهم مَن لا يجدها الاّ في الاضرار بالناس والظلم والتشفي على غير طائل او باعث حتّى كأنهُ موكّل بالشرّ. على ان منهم مَن يطلبها في الامور الجائزة الاّ انهُ يطمح في الطلب بان يجعلها البغية الكبرى والمنية العظمى فتتجه اليها حينئذٍ كل اعمالهِ حتّى لا يعود قادرًا على عملٍ من الاعمال التي من شأنها رفع مقام الانسان. فهذه المقاصد وما جرى مجراها ما هو مستلذٌ عندهم ليست في نفس الامر من اللذة الحقيقية في شيء بل هي عين الرذيلة الجالبة للغموم والمتاعب والاكدار

وللذة الفاسدة مقاصد كثيرة مختلفة غير ان ما قد ذكرناهُ منها يمشّي عليهِ اكثرها وكلها مبنى الرعاع على الغالب الاّ انهُ قد يزاحمهم فيها كثير من ذوي الطبقات الاخرى بل ان منها ما هو خاصٌّ بهم لقصر اولئك عن التوصّل اليها وافتقارهم الى الوسائط الموصّلة. ولا يخفى ان الجري وراء هذه الملذات المستهجنة ناشيء عن التربية الفاسدة او المعاشرة الردية او عن ميل خصوصيٍّ لا يخلو امرهُ من فسادٍ في الفطرة او عن غير ذلك مما يسببهُ الجهل.

ولذلك كان الاقبال عليها شائعاً عند مَن فاتهُ معرفة نفسهِ وجهل واجباتهِ نحو الفضيلة. وخلاصة القول ان كل لذة تؤدي الى اذية الغير او تفضي بصاحبها الى اضاعة الوقت في الجهل بحيث تنزل بهِ من قدر الانسان الرفيع الى منزلة السفاهة فهي فاسدة ومحظورة

تقدّم معنا ان اللذة الصالحة غير مقصودة في ذاتها بل هي ما يأتي من القيام بالاعمال الواجبة وانها السعادة الحقيقية في هذه الحياة. لان السعادة فيها هي ان يتمتع الانسان بالعافية ويكون عندهُ رزق الكفاف ولا يضيع حياتهُ بالجهل ولذلك فاللذة الكاملة متوقفة على وجود الاسباب المذكورة فان لم توجد هذه الاسباب امتنعت السعادة وتعذرت اللذة وبات الانسان تعيساً

وما من احدٍ يجهل ان الذين قضوا الحياة في خدمة الانسانية وخلّدوا لانفسهم ذكرًا حميدًا لا يمحوهُ الزمان قد فازوا بلذةٍ حقيقية لا يقاس بها شيءٌ مما بين ايدينا. وما اعظم اللذة الناشئة عن الخدمة الوطنية او الدفاع عن المصالح العمومية او الانتصار للمظلومين او اغاثة الملهوفين او اعانة المحتاجين او افادة الطالبين او ارشاد المسترشدين او نحو ذلك مما توجبهُ محبة القريب ويُقصَد بهِ خير البشر. وما اشرف اللذة اذا نشأت عن مثل هذه الاعمال ولم يقصد بها سوى خدمة نوع الانسان

ولا سبيل الى القول ان لهاتيك الاعمال رجالاً منوطة بهم لانهم امتازوا بالوسائط اللازمة من نحو العلم والغنى والمقام والاقدام الى غير ذلك — لانهُ مهما كانت حالة الانسان فانهُ لا يقدر على عمل الخير لاسيما وان لهذا العمل طرقًا كثيرة متفاوتة في الكيفية والكمية. ومن المعلوم انهُ ما من عملٍ يعملهُ الانسان الاَّ ويجد بعد الشروع فيهِ من الوسائط المساعدة ما لم يكن يخطر ببالهِ او يخالهُ ممكنًا من قبلُ. والمتأمّل في حقيقة ذلك يرى ان السرَّ فيهِ انما هو إعمال الفكرة والاجتهاد المتواصل على انهُ لا يبعد ان يكون هناك شيءٌ مما يُعرَف بالتوفيق اذ لا يمكننا ان ننكر العناية الالهية في تدريبنا على الاعمال النافعة. والحاصل ان لصنع الجميل وعمل الخير وسائط شتّى اكثر واسهل مما لاعمال الشر

وللاعمال الخيريّة على اختلاف صورها ومقاديرها لذة واحدة قلما تزيد او تنقص لانهُ ما من عملٍ خيريّ الاَّ وفيهِ من اللذة ما يفرّح القلب ويملأ النفس سرورًا. فلا يخلو والحالة هذه من ان اللذة تنشأ عن العمل من حيث كونهُ مفيدًا فقط لا من حيثيّة أخرى والاَّ لانحصرت هذه اللذة بالعلماء والعظماء الذين تلقى اليهم مقاليد الاعمال الكبيرة وبات غيرهم في ظلمة الغم والشقاء. ولعلَّ هاتهِ اللذة تتمشى في هذه الحياة على طريقة الثواب في الحياة

الاخرى من ان العامل الصغير ينال من الثواب ما ينالهُ العامل الكبير اذا عمل كلٌّ منهما ما في طاقتهِ . فَلْيبشر كل عاملٍ للخير وساعٍ وراء الفضيلة بالحصول على اللذّة الكاملة والسعادة الحقيقية مهما تفاوتت الاعمال

ولا بدَّ في هذه الاعمال من إخلاص النية ومراعاة سلامة الضمير حتّى لا يكون هنالك شيءٌ من الاغراض الذاتية التي من شأنها افساد العمل وتحويل خيرهِ الى شرّ . لان مَن لم يقصد خير القريب الاّ من حيث اكتساب الفخر او عَوْد الخير على نفسهِ او من حيثيّاتٍ اخرى تفسر بالصفات الادبية فانما يفسد عملهُ ويخسر اللذة الصالحة اذ تمسي من قبيل اللذة الفاسدة التي مرَّ بنا شيءٌ منها . ومن كان هذا شأنهُ لا يقتصر على اهمال ما يمكنهُ عملهُ من الخير ما لا يجديهِ نفعًا خصوصيًّا بل يتجاوزهُ الى استخدام الشرّ اذا مسَّت الحاجة . لان مَن يجعل الخير وسيلةً لفائدتهِ الذاتية لا يتأخَّر عن جعل الشر كذلك . ومن هولاء مَن تتناهى فيهم الاغراض الشخصية حتّى يفنيها التناهي او يفني بعضها فيعدلون عن طُرُق الخير ويعرضون عن كل عمل خيري ممّا كانت تقودهم اليهِ هاتيك الاغراض . وهذا حال مَن رأيناهم قصدوا الاعمال الخيرية في قسم من حياتهم ثمَّ ضربوا عنها صفحًا في القسم الباقي . على انهُ ما من احد ينكر ان مغايرة الصدق والحق والعدول عن الانصاف والعدل من نتائج روح الغرض . وما من سبيل الى الظن انهُ يستحيل على الانسان تنزيه النفس عن مثل هذه الاغراض بناءً على ما لها بحسب اعتقاد البعض في تربة الجبلة من الاصول المغروسة — لان ما كان منها مؤدّيًا الى نحو ما تقدم فليس من اصلٍ لهُ في الفطرة السليمة كما يُستدلُّ عليهِ من اعمال الكثيرين ممَّن اشتهروا بالاعمال النافعة وهم على غايةٍ من حسن السيرة واستقامة القلب . على انهُ ما من شكٍّ في ان الاعمال الخيرية الخالصة لا تكون الاّ محبوبة باستقامة القلب والسيرة منزّهة عن كل رياءٍ ومكر . فان قيل انهُ ما من عمل خيري يعملهُ الانسان الاّ ولهُ فيهِ غرضٌ من الاغراض الذاتية . قلنا ان من هذه الاغراض ما ليس من شأنهِ ان يفسد العمل ومنها ما يجعلهُ خالصًا للخير بخلاف ما كان منها محوّلاً خيرهُ الى شرّ والاّ فما هي اغراض اولئك الذين ضحّوا حياتهم لاجل المصلحة العامة . او الذين بذلوا كل ما في وسعهم لخير الامة والوطن . او غيرهم ممَّن خدموا الانسانية مجانًا ان لم تكن كذلك . على انهُ مهما كانت الاغراض فكفى بها صلاحًا انها آيلة برمتها الى خير البشر بحيث يمكن القول انها تنس اللذة الصالحة التي فازوا بها . وما احسن ما جاء عن احد فلاسفة القدماء في هذا المعنى حيث قال : انهُ ينبغي لكل احد التمسك بالفضيلة

لذاتها لا لما يترتب عليها من ثواب فانها بذاتها كافية في اسعاد المرء فمن تمسك بها تمتع بكمال الراحة ولو احاط بهِ التعب الشديد

وجملة القول ان اللذة الحقيقية الراهنة التي لا يشوبها غمٌّ ولا كدر بل يعيش بها الانسان في هذه الحياة متمتعاً بكمال الراحة والسعادة خلافاً لمن يزعم أن لا راحة في الدنيا انما هي اللذة الصالحة التي تبينت لنا ممَّا اوردناهُ انها ليست باكثر مما ينشأ عن الاعمال الصادرة عن الاخلاق الكريمة والعواطف الشريفة من نحو العفة والطهارة والرحمة والشفقة والمحبة والسلامة والاحسان والصدق واللطف والوداعة والامانة مما يقدر عليهِ كل انسان ويتمكن بهِ من الحصول على هذه اللذة الثمينة . وقصارى الامر انها خير ما يُبتغى في الحياة الدنيا وغاية ما يقصدهُ الانسان الفاضل من كل اعمالهِ فان لم يجدها ولو خلال هاتيك الاعمال فهو الشقيُّ التعيس

تعدُّد الازواج

أَلِف الناس تعدُّد الزوجات لانهُ عادة قديمة جرى عليها الفرس والرومان والمصريون واليهود وغيرهم من الامم القديمة ولا تزال شائعة الى يومنا هذا اما تعدُّد الازواج فلم نألفهُ لانهُ محصور الآن بين بعض القبائل المتوحشة مع انهُ كان قديماً شائعاً بين كثير من الامم ثم تقلص ظلهُ رويداً رويداً

ولا يخفى ان اقتناص الزوجات اقتناصاً كان قبلاً شائعاً بين قبائل الارض ولم تزل آثارهُ في كثير من عوائد الخطبة والزواج الى يومنا هذا فكان عدد من الرجال يتحاربون على امرأة واحدة فتصير غنيمة للظافر منهم وسبب ذلك كما علله بعضهم هو قلة النساء حينئذٍ بالنسبة الى الرجال وقد دعا ذلك الى اشتراك عدَّةٍ من الازواج في زوجة واحدة . ولولا قلة النساء ما امكن ان تشيع هذه العادة لانهُ لا يحتمل ان يرضى الرجل بان يكون لهُ شريكان او ثلثة في زوجتهِ اذا استطاع ان يستقلَّ بها وهي نفسها لا ترضى ان تكون زوجة لثلاثة رجال واخواتها عزبات لا ازواج لهنَّ . وقد ثبت بالاستقراء انهُ يولد من الاناث اكثر مما يولد من الذكور عادةً فلا بدَّ من انهُ حدث امر اخلَّ بهذه القاعدة فصار بهِ الاناث اقل من الذكور كثيراً ونتج عنهُ تعدُّد الازواج وهذا الامر هو وأْد البنات اي قتلهنَّ في طفوليتهنَّ فان الوأْد شاع بين الشعوب القديمة وجرى عليهِ جاهلية العرب ولذلك